التشبیه والتجسیم عند ابن تیمیة

* آیت الله العظمی جعفر سبحانی (دامت برکاته)

◆ **شواهد على ميل بنى إسرائيل إلى التجسيم و التشبيه**

نزلت الشرائع السماوية على تنزيه الله سبحانه عن كونه جسماً أو جسمانياً مشابهاً لمخلوقاته إلى غير ذلك ممّا يعد من آثار المادة.

غير أنّ احتاك أقوام ممن نزلت عليهم الشرائع بالوثنيين صار سبباً للميل إلى التجسيم و التشبيه، و على رأسهم قوم بني إسرائيل و يدل على ذلك شواهد نسردها ذيلاً:

١. **طلبهم من موسى عليه السلام الإله المجسّم**

أنّ نبي الله موسى عليه السلام بعد ما عبر ببني إسرائيل البحر و نزلوا إلى الضفة الأُخرى منه رأوا أنّ أقواماً يعبدون أصناماً فطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً مثل ما لهم آلهة هؤلاء لكي يعبدونها، فكأنّهم فكروا أنّ عبادة الإله غير المرئي أمر غير مفيد، فيجب أن يُعبدالله سبحانه بصورة موجود مجسم، و هذا ما يحكيه قوله سبحانه:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.[1]

فالآية تحكي أنّ النزوع إلى الوثنية كان راسخاً في نفوسهم حتى غفلوا عن النعمة الكبرى التي شملتهم و هي نجاتهم من فرعون فطلبوا من موسى ما يضاد شريعته و عقيدته.

---

١. سورة الأعراف، الآية ١٣٨.

٢. **طلبهم رؤية الله تعالى**

الشاهد الثاني على رسوخ فكرة التجسيم عندهم أنّهم طلبوا من موسى عليه السلام رؤية الله سبحانه بالعين، و لولاها لم يؤمنوا به، و هذا ما يحكيه الذكر الحكيم في قوله سبحانه: ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾.[١]

٣. **عبادتهم العجل في غياب موسى عليه السلام عنهم**

الشاهد الثالث على رسوخ فكرة التجسيم في أذهانهم و أنّهم كانوا يميلون إلى الإله المجسم أكثر من ميلهم لما دعاهم إليه موسى عليه السلام، اغترارهم بما صنع السامري حيث صنع لهم عجلاً جسداً له خوار، و دعاهم لعبادته، فعكف القوم ـ إلّا القليل منهم ـ على عبادته دون أن يدور في خلد أحدهم أن هذا يخالف ما دعاهم إليه نبيهم موسى عليه السلام عبر السنوات الطوال، و هذا ما يحكيه الذكر الحكيم عنهم، قال سبحانه:

﴿**وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ**﴾.[٢]

و في آية أُخرى يتضح بصراحة أنّهم اتخذوا هذا العجل إلهاً لهم، قال سبحانه: ﴿**فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ**﴾.[٣]

و هذه الحوادث التاريخية المريرة على قلب موسى عليه السلام التي يذكرها القرآن الكريم تحكي عن انحراف بني إسرائيل عن خط التنزيه إلى خط التجسيم.

◆ **تطرق فكرة التجسيم إلى النصرانية**

لما بُعث المسيح عليه السلام الى بني إسرائيل ذكر بأنّه بُعث بنفس ما بعث به الكليم فقال: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ**﴾.[١]

١. سورة البقرة، الآية ٥٥.
٢. سورة الأعراف، الآية ١٤٨.
٣. سورة طه، الآية ٨٨.

و لكن تطرقت فكرة التجسيم إلى النصرانية بعد ما رفع الله المسيح عليه السلام . و كان المبدأ لذلك هو الديانة البرهمانية التي رفعت علم التثليث و قالت بالآلهة الثلاثة؛ أعني:

١. برهما: الخالق؛

٢. فيشنو: الواقي؛

٣. سيفا: الهادم.

فالإله عند البراهمة يشبه مثلثاً ذا أضلاع ثلاث و كانت تلك الفكرة منتشرة بين الروم القاطنين في سوريا و فلسطين و ما جاورها حيث بعث المسيح عليه السلام . فأخذ أتباعه في القرن الثاني نفس الفكرة فصبغوها بشكل آخر، فصار التثليث بالنحو التالي: الأب، الإبن، روح القدس، و هي التي يسمونها الأقانيم الثلاثة، ينقل الاستاذ محمد فريد وجدي عن دائرة معارف، *لا روس*، ما يلي:

> إنّ تلاميذ المسيح الأوّليّين الذي عرفوا شخصه، و سمعوا قوله، كانوا أبعد الناس عن اعتقاد أنّه أحد الأركان الثلاثة المكوّنة لذات الخالق، و ما كان بطرس ـ أحد حواريه ـ يعتبره إلّا رجلاً موحى اليه من عندالله، أمّا بولس فإنّه خالف عقيدة التلاميذة الأقربين لعيسى و قال: إنّ المسيح أرقى من إنسان و هو نموذج إنسان جديد أي عقل سام متولد من الله.[٢]

ثمّ انّ القرآن الحكيم يحكي عن أنّ النصارى قد اقتبسوا هذه الفكرة من الذين كفروا من قبل، قال سبحانه:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.[٣]

---

١. سورة الصف، الآية ٦.

٢. *دائرة المعارف القرن العشرين*، مادة ثالوث، ج ٢، ص ٧٥٩.

٣. سوره التوبة، الآية ٣٠.

◆ **دور الأحبار و الرهبان في نشر فكرة التجسيم**

بعث النبي الخاتم ﷺ على تنزيهه سبحانه و رفع مقامه تعالى عن مشابهة المخلوقات، ملهماً من قوله سبحانه: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[1] غير انّ قسماً من الأحبار و الرهبان الذين استسلموا ظاهراً ـ و لكن بقوا على ما كانوا عليه من الديانة الموسوية أو العيسوية باطناً ـ أشاعوا بين المسلمين نفس الفكرة بواسطة الأحاديث و القصص التي كانوا يحكونها عن كتبهم، فأخذها السُذج من المحدثين كحقائق صادقة واقعية، محتجّين بما نسب إلى النبي ﷺ من قوله: «حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».

و قد اغتر بهذه الإسرائيليات أو المسيحيات محدّثان معروفان هما: ابن خزيمة و ابن مندة، فقد حشدا في كتابيهما كل ما يدل على تلك الفكرة الموروثة.

فعن الأوّل يقول الرازي في تفسيره الكبير عند تفسير قوله سبحانه: « **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** »:

> احتج علماء التوحيد قديماً و حديثاً بهذه الآية في نفي كونه تعالى جسماً مركباً من الأعضاء و الأجزاء، و حاصلاً في المكان و الجهة، و قالوا: لو كان جسماً لكان مثلاً لسائر الأجسام فيلزم وجود الأمثال و الأشباه له، و ذلك باطل بصريح قوله تعالى ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾.[2]
>
> و اعلم ان محمد بن إسحاق بن خزيمة أورد استدلال أصحابنا بهذه الآية في الكتاب الذي سمّاه بـ«التوحيد» و هو في الحقيقة كتاب الشرك ثم وصفه بقوله: إنّه مضطرب الكلام قليل الفهم ناقص العقل.[3]
>
> و لكلامه صلة، من أراد فليرجع إليه.

---

١. سورة الشورى، الآية ١١.

٢. سورة الشورى، الآية ١١.

٣. *التفسير الكبير*، ج٢٧، ص ١٥٠

و كفى في حق الثاني (ابن مندة) ما سنذكره عنه من قوله: إنّ لله سبحانه عرشاً يجلس عليه و هو يئط أطيط الرحل.

◆ **نصوص من ابن تيمية على التجسيم**

إذا عرفت هذه المقدمة الموجزة فلندخل إلى المقصود من هذه المحاضرة، و هو أنّ أحمد بن محمد بن تيمية المولود (٦٦١-٧٢٨ق)، قد اقتفى تلك الفكرة إمّا كناية و أخرى صريحاً و ها نحن ننقل نصوصه من كتبه، حتى يقف من اغتر بآرائه أنّه كان مخطئاً في تلك العقيدة و مخالفاً لما عليه علماء الإسلام عبر القرون و ائمة اهل البيت عليهم السلام كلهم.

النص الأوّل: يقول في تفسير قوله سبحانه ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**﴾،[1] و تفسير قوله: ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾[2] ما هذا نصّه:

> فإنّه لا يدلّ على نفي الصفات بوجه من الوجوه بل ولا على نفي ما يسمّيه أهل الاصطلاح جسماً بوجه من الوجوه.[3]

و مراده من الصفات في قوله«نفي الصفات»، الصفات الخبرية التي أخبر عنها سبحانه كاليد و الوجه و غيرهما، فهو يعتقد أنّ الجميع يوصف به سبحانه من غير تأويل ولا تعطيل بل بنفس المعنى اللغوي.

النص الثاني: و قال أيضاً:

> و أمّا ذكر التجسيم و ذم المجسمة، فهذا لا يعرف في كلام أحد من السلف و الأئمة؛ كما لا يعرف في كلامهم ايضاً القول بأنّ الله جسم أو ليس بجسم.[4]

---

١. سورة الشورى، الآية١١.

٢. سورة مريم، الآية ٦٥.

٣. *درء تعارض العقل و النقل*، ج ١، ص ٦٦.

٤. همان، ص ١٤٠.

النص الثالث: و يقول في كتاب آخر له:

و امّا ما ذكره (العلامة الحلي) من لفظ الجسم و ما يتبع ذلک بأن هذا اللفظ لم ينطق به في صفات الله لاكتاب و لا سنة لا نفياً ولا إثباتاً ولا تكلم به أحد من الصحابة و التابعين و تابعيهم لا أهل البيت و لا غيرهم.[1]

النص الرابع: إلى هنا يتضح أنّه أخفى التصريح بأنّه تعالى جسمٌ، ولكن ذكر أنّ تلک القضيتين ليستا من كلام السلف يعني أنّ الله جسم أو ليس بجسم، و لكنّه في موضع من كتابه *منهاج السنة* أظهرعقيدته، و هذا ما نلاحظه في النص التالي.

و قد يراد بالجسم ما يشار إليه أو ما يُرى أو ما تقوم به الصفات و الله تعالى يُرى في الآخرة و تقوم به الصفات و يشير إليه الناس عند الدعاء بأيديهم و قلوبهم و وجوههم و أعينهم فإن أراد بقوله: ليس بجسم هذا المعنى قيل له هذا المعنى ـ الذي قصدت نفيه بهذا اللفظ معنى ثابت بصريح المنقول و صريح المعقول و أنت لم تقم دليلاً على نفيه.[2]

فقد عرّف إلهه الذي يعبده بالأمور التالية:

١ـ أنّه يُشار إليه؛

٢ـ أنّه يُرى؛

٣ـ أنّه يقوم به الصفات فيكون مركباً؛

٤ـ أنّ له مكاناً، بدليل رفع الناس أيديهم عند الدعاء إلى الأعلى.

فالإله بهذا المعنى عنده ثابت بصحيح المنقول و صريح المعقول.

---

١. *منهاج السنة*، ج ٢، ص ١١٧.

٢. همان، ص ٧٥.

النص الخامس: و قال أيضاً:

و ليس في كتاب الله و لا سنة رسوله و لا قول أحد من سلف الأُمة و أئمتها أنّه ليس بجسم، و أنّ صفاته ليست اجساماً و اعراضاً.[1]

هذه كلماته التي نقلناها بنص من كتبه المشهورة، ودع عنك ما ذكره في الرسائل الكبرى التي سيوافيك شيء منه.

ولكن ما ندري ما ذا يريد بقوله: «ثابت بصحيح المنقول»؟ فهل يعني الذكر الحكيم؟ فما اختاره يضاده تماماً حيث يقول: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾، فلو كان سبحانه جسماً يلزم ان يكون له طول و عرض و ارتفاع، و بالتالي يكون مركباً من اجزاء محتاجاً في تحققه إلى كل جزء. هذا ما يقوله صحيح المنقول.

و أمّا ما نسبه إلى صريح المعقول فهو ايضاً يضاد ما ذكره تماماً كذلك إذ لو كان جسماً لاحتاج إلى مكان، فالمكان إمّا أن يكون قديماً فيكون الهاً ثانياً و إن كان حادثاً أحدثه سبحانه فأين كان هو قبل إحداث هذا المكان.

و أمّا رفع الناس أيديهم عند الدعاء فلا يعنى أنّه سبحانه في السماء و إنّما يريدون إفهام رفعة مقام الله سبحانه برفعهم أيديهم.

و أمّا ما نسبه إلى السلف ـ فالسلف برئ منه براءة يوسف مما اتهم به ـ فيكفينا أن نذكر كلام البيهقي في كتابه الأسماء و الصفات، قال:

احتجّ أهل السنّة على أنّه سبحانه ليس في مكان بالحديث النبوي التالي، قال ﷺ :«أنت الظاهر فليس فوقك شيء و أنت الباطن فليس دونك شيء». فإذا لم يكن فوقه شيء ولا دونه شيء لم يكن في مكان.[2]

و هناك كلمات كثيرة من أهل الحديث لا يسعها المقام.

---

١. *بيان تلبيس الجهمية*، ج ١، ص ١١٠.

٢. *الاسماء و الصفات*، ج ٢، ص ٢٨٩، باب ما جاء فى العرش و الكرسى.

◆ **إجابة عن سؤال**

ربما نسمع من الكثير من أتباع الرجل قولهم : أنّه سبحانه جسم لا كالأجسام؛ نظير قولنا: شيء لا كالأشياء؛ فكما أنّ الثاني صحيح، فالأوّل صحيح أيضاً.

و الجواب عنه واضح، و هو أنّ الشيء لا يدل على خصوصية خاصة بل يدل على نفس الوجود و التحقق فلا مانع من أن يقال: أنّه شيء لا كالأشياء، أي له وجود لاكوجود الأشياء المحتفة بالخصوصيات الزائدة على الوجود.

و امّا الجسيم فيدل على خصوصية مقومة له و هو كونه ذا عرض و طول و ارتفاع، فالقول بأنّه جسم، يلازم ثبوت هذه الصفات. فتعقيبه بـ«لا كالأجسام ينفي هذه الخصوصيات» فيكون الكلام حاملاً للتناقض.

◆ **كلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية**

إنّ ابن تيمية قد بدأ بنشر أفكاره الشاذة لأوّل مرة في رسالته في العقيدة الواسطية ـ أعني الرسالة التاسعة من مجموعة الرسائل الكبرى ـ و وصف فيها الباري سبحانه بالعبارة التالية: «تواتر عن رسوله صلى الله عليه وآله و أجمع عليه سلف الأمة من أنّه سبحانه فوق سماواته، على عرشه، عليٌّ على خلقه».[1]

و معنى العبارة أنّه سبحانه:

١ـ فوق السماوات؛

٢ـ جالس على عرشه؛

٣ـ في مكان مرتفع عن السماوات و الأرض.

و ليس لهذه الجمل معنى سوى أنّه كملك جالس على السرير في مكان مرتفع ينظر إلى العالم تحته. نعم استند هو في كلامه هذا بما نقله ابن مندة في توحيده عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«ويحك أتدري ما الله، إنّ عرشه على سماواته و أرضيه ـ هكذا بأصابعه ـ مثل القبة عليها و انّه ليئط أطيط الرحل بالراكب».[2]

---

١. *مجموعة الرسائل الكبرى*، الرسالة التاسعة، ج١، ص٤٠١.

٢. *توحيد ابن مندة*، ٤٢٩.

و كأنّه سبحانه جسم كبير فوق الكبر له ثقل على العرش و هو يئط كما يئط الرحل حينما يجلس عليه الإنسان الثقيل.

و للأسف فإنّ هذا الحديث قد ورد كثيراً في كتب الحديث فقد نقله ابو داود في سننه برقم ٤٧٢٦، و ابن خزيمة في توحيده برقم ١٤٧، و ابن ابي عاصم في السنة، ص ٥٧٥، و ابن أبي حاتم في تفسير سورة البقرة برقم ٢٢٣.

ولا شك أنّ هذا الحديث و أمثاله من الإسرائيليات التي تطرقت إلى كتب الحديث، هو من الآثار السلبية لمنع كتابة الحديث النبوي في القرن الأوّل و شيء من الثاني، حتى تداركه الدوانيقي عام ١٤٣ق.

◆ **حديث نزوله سبحانه إلى السماء الدنيا**

إنّ ابن تيمية يعتقد بأنّ نزوله سبحانه حقيقي واقعي ملموس، و هذا ما يحكيه الرحالّة الطائر الصيت ابن بطوطة، يقول:

> حضرت يوم الجمعة مسجداً يعظ فيه ابن تيمية على منبر الجامع و يذكرهم فكان من جملة كلامه إنّ قال: ان الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا و نزل من درج المنبر، فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن الزهراء و أنكر ما تكلم به فقامت العامة إلى هذا الفقيه و ضربوه بالأيدي و النعال ضرباً كبيراً.[1]

◆ **موقف أهل البيت عليهم السلام من فكرة التجسيم**

تقدم أنّ ابن تيمية ذكر في كلماته أنّه لم يرد عن أهل البيت عليهم السلام ما يدل على عدم كونه جسماً، ولكنّه لبعده عنهم و ما يبدو من كلماته من النصب و العداء الذي يكّنه لهم، فإنّه لم يراجع كلماتهم، فصار يرمى الكلام على عواهنه من غير دليل.

---

١. *رحلة ابن بطوطة*، ص ٩٥-٩٦.

و قد وقف الأصم و الأبكم فضلاً عن العلماء على أنّ التوحيد و التنزيه من شعار أئمة أهل البيت عليهم السلام كما أنّ التشبيه و الجبر من شعار الأمويين، وها نحن ننقل شيئاً قليلاً من كلمات أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله ، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في احدى خطبه:

> ما و حدّه من كيّفه، و لا حقيقته اصاب من مثّله، و لا إياه عنى من شبّهه، و لا صمده من اشار اليه و توهمه.[1]

روى الصدوق بإسناده إلى أبي إسحاق السبيعي، عن الحارث الأعور قال: خطب أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام يوماً خطبة بعد العصر، قال فيها:

> الحمدلله الذي لا يموت، ولا تنقضي عجائبه؛ لأنّه كل يوم في شأن، من إحداث بديع لم يكن، الذي لم يولد فيكون في العزّ مشاركاً، و لم يلد فيكون موروثاً هالكاً، و لم تقع عليه الأوهام فتقدّره شبحاً ماثلاً، و لم تدركه الأبصار فيكون بعد انتقالها حائلاً، الذي ليست له في أوّليّته نهاية، ولا في آخريته حدّ ولا غاية، الذي لم يسبقه وقت، و لم يتقدمه زمان، و لم يتعاوره زيادة ولا نقصان،و لم يوصف بأين ولا مكان.[2]

فأي كلمة أوضح في نفي التشبيه و التجسيم من قوله عليه السلام :«لم تقع عليه الأوهام فتقدره شبحاً ماثلاً» و أيّ جملة أوضح في نفي المكان من قوله:«و لم يوصف بأين ولا مكان».

هذه إلمامة عابرة إلى توحيد ابن تيمية، و أمّا الكلام في سائر آرائه و أفكاره الشاذّة عن الكتاب و السنة فموكول إلى وقت آخر بإذن الله سبحانه.

---

١. *نهج البلاغة*، الخطبة ١٨٦.

٢. *توحيد الصدوق*، ص ٣١.

◆ المصادر

* القرآن الكريم.

١. *الأسماء و الصفات*: احمد بن الحسين البيهقى، جدة: مكتبة السوادى.

٢. *بيان تلبيس الجهمية*: ابن تيمية، مكه: مطبعة الحكومة، ١٣٩٢ق.

٣. *التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)*: محمد بن عمر فخر رازى، بيروت: دارإحياء التراث العربى، ١٤٢٠ق.

٤. *توحيد ابن مندة*: ابن مندة، بيروت: طبع مؤسسة المعارف.

٥. *التوحيد*: الشيخ الصدوق، قم: موسسة النشر الإسلامى، ١٣٩٨ق.

٦. *دائرة المعارف القرن العشرين*: محمد فريد وجدى، بيروت: دارالفكر.

٧. *درء تعارض العقل و النقل*: تحقيق: محمد رشاد سالم، رياض: دارالكنوز الادبية، ١٣٩١ق.

٨. *رحلة ابن بطوطة*: ابن بطوطة، دار صادر، ١٣٨٤ق.

٩. *مجموعة الرسائل الكبرى*: ابن تيمية، بيروت: دارإحياء التراث العربى.

١٠. *منهاج السنة النبوية*: ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم،قاهرة: مؤسسة قرطبه.